

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وفيها خلا ديوان الزمام ببغداد من نائب وزارة ، وكان الخليفة قد فوض الأمور بأسرها إلى أستاذ الدار ابن الصاحب وجعل الاختيار إليه فيمن يرتب ويعزل . فاستاذن ابن الصاحب الخليفة — ثبت الله دعوته — بأن يرتب عز الدين صدقة بن صدقة نائب وزارة ، وكان حاجباً بباب النوبي ، فأذن له الخليفة في ذلك ، فأحضره إلى داره وخلع عليه خلعة شريفة ، وأحضر حاجب الحجاب ابن جعفر وحجاب (٨٩ ب) الديوان بأسرهم وكل من يتعلق بالديوان العزيز من الكتاب وغيرهم ، وقال لهم : « إن الخليفة قد رسم أن يكون هذا — وأشار إلى عز الدين بن صدقة — نائب وزارة بالديوان العزيز أسوة بمن تقدمه فكونوا بين يديه وفي خدمته ، فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم تقدم بأن يدخل مركوبه إلى الدار فأدخل وخرج من عند أستاذ الدار وقام له أستاذ الدار كل القيام ، وركب من الدار على الصُفّة وخطب « بجلال الدين » ، وخرج الناس بين يديه إلى باب الديوان ، فلما أراد النزول عضده ابن جعفر حاجب الحجاب ودخل وجلس في حجرة الصلاة ، وأحضر الكتاب والخازن واعتبر أحوال الديوان ساعة ، ثم ركب وجماعة من الأمراء بين يديه إلى داره التي في القرية بدار الخليفة في درب البستان ونزل بها ، وتقدم إليه أستاذ الدار « أن لا تعمل شيئاً إلا بأمرنا ، وإن كتبت شيئاً أكتبه إلينا » فقال : « السمع والطاعة » ، وحضر جماعة من أرباب الدولة دار المذكور يهتفون بالولاية . وأنشد الشعراء ، وحضر العلماء ، وانعكف الناس عليه .

وفي ذلك اليوم تقدم إلى ابن عبد الله بن الوكيل أن يكون بين يديه حاجب المجلس ، وخلع عليه وصار حديث الناس معه واستقل أمره أسوة من تقدمه ، وكان الناس يفضلونه في الاحترام والإكرام على من تقدمه لأنه كان من بيت الوزارة ، وسأل بعد أيام من ولايته أن ينقل إلى

الدار التي كان فيها ابن البخارى - دار المطبق - وهى التى كان فيها عون الدين الوزير ابن هبيرة ، فأذن له فى ذلك فانتقل إليها ، وتقدم له بالإقطاع الذى كان لابن البخارى وهى جللتا ومايجرى معها من أعمال طريق خراسان ؛ وحاصل هذا الإقطاع فى كل سنة عشرة ألف دينار إمامية . ونفذ نوابه إلى الإقطاع وتصرف فيه وحكم فى الديوان وبسط يده ولسانه . وكان أستاذ الدار ابن الصاحب كل ساعة يتقدم إليه بما يعمل ، تارة ينفذ إليه الحاجب أبا الرضا وتارة أبا (١٩٠) الشجاع وتارة مملان ، وما كان يتجاوز ما يتقدم به إليه ، وكان عادة الوزير أو النواب الذين يسكنون هذه الدار لا يركبون إلى صلاة الجمعة بل يمضون إلى الصلاة مشاة اقتداء بعون الدين بن هبيرة الوزير رحمه الله تعالى لأن حائط الجامع حائط هذه الدار من باب القصور الشريفة من دار الخلافة التى بابها فى المطبق وهى بجامع القصر ، وينزل الوزير والنائب إذا ركبوا بابها خطوات قريبة ، فقال جلال الدين بن صدقة . « ما أريد أن أمشى ولا أخرج إلا راكباً ، وكان فيه تبه عظيم وتهور ومن تقدم عمل بنفسه ما أراد ، وقدم الفرس يوم الجمعة وركب من دخل الدار وخرج إلى الصلاة ، فعلم الناس أن هذه الحال تدل على جهله وقلة عقله ، وكان حاجب الحجاب يعضده عند ركوبه وعند نزوله ، ويطالع بجميع حركاته وما يتكلم به أو يتقدم به أو يطلقه أو يخرج به ويذكر ذلك كل يوم بمطالعة ويعرضها على أستاذ الدار ، فإن رأى فيها ما يستحسنه عرضه وإن رأى ما يكرهه لا يعرضه ، فعلم بهذه الحال أستاذ الدار .

وفى رتب ابن عون الدين بن هبيرة حاجباً يباب النوبى الشريف ، وكان أستاذ الدار يرى فى حقه ويقرّ به ، وكان قد رتب معه فى المكتب ، وكان أستاذ الدار لا يزال يصف دينه ويسدد رأيه ، وخلع عليه خلعة جميلة

وخضع عليه أيضاً أستاذُ الدار تشریفاً جميلاً ، وكان نائباً (١) الباب ابن الظهري وصاحب الخبز بالباب ابن الحلال ، وقاضي الباب ابن الصباغ قاضي الربع ، وكتب ما كتب حاجب الباب ابن الظهري رقعة إلى العرض الأشرف أن ينعم عليه بالتشريف على عادة أمثاله ، فخرج الأمر بإحضاره إلى الديوان العزيز وتشريفه فأحضر وشرف بخلعة سوداء وعمامة سوداء وسيف مذهب وفرس .

* * *

وفيها كتب صفي الدين بن عمارة رقعة إلى الخليفة يذكر فيها (٩٠ ب)
« أن أرباب الأملاك بناحية بعقوبا (٢) وناحية بُوَهْرَز (٣) قد أخذوا جملة كبيرة من أموال الوقف أجلبهم الله تعالى ، ولو تقدم (٤) باعتبار ذلك وتحقيق ما قد صار إلى المذكورين لحصل له من المال مبلغ كبير ، فأنفذ الخليفة الرقعة إلى أستاذ الدار وتقدم إليه بأن ينفذ مع ابن عمارة جماعة لا اعتبار هذه الأحوال ، فتقدم أستاذ الدار إلى نائب الوزارة جلال الدين بن صدقة بأن يتولى ذلك ويدبره ، فأحضر المحتسب ابن الرطبي ومعه عدل من عدول الحضرة ، وتقدم إلى ابن عمارة بأن يخرج ويحقق ذلك فخرج ، وكان ابن صدقة قد عرض الرقعة على الخليفة - دام ظله - وقد حسن له هذه الحال ؛ فمضى ابن عمارة ومسح الأملاك بناحية بعقوبا وِبُوَهْرَز ، فحضر إلى الديوان خلق كبير من الناحيتين واستغاثوا يوم الجمعة قدام الخطيب بجامع القصر

(١) في الأصل « حاجب » وفوقها « نائب » .

(٢) بعقوبة من مدن العراق ، كانت على الطريق المؤدى إلى بغداد وتقع بأعلى السهوان ، راجع : مراسد الاطلاع ١/ ١٥٤ ، ولي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) بوهرز : بضم الباء وفتح الواو وسكون الهاء وكسر الراء : قرية كبيرة تحت بعقوبا ، راجع مراسد الاطلاع ١/ ٢٢٢ .

(٤) أي الخليفة .

الشریف ، وأنهى ذلك إلى الخليفة من جانب أستاذ الدار ، وكان ابن صدقة يمنع من يتألم (١) ، فتقدم الخليفة بإحضار ابن عمارة إلى الديوان وإحضار قاضى القضاة ابن الدامغانى والمحتسب ابن الرطبي وأمر بإحضار أرباب الأملاك وينظرون تكيف هذه الحال ويطالعونه بحقيقتها ، فحضر الجماعة وجلس صدقة بن صدقة فى بيت الجيش الكبير وسمع ما ذكره ابن عمارة من زيادة الأملاك ، وتقدم إلى الملاك بإحضار كتب أملاكهم واعتبارها وطال الحديث فى ذلك ، وكان المجمع على أهل بعقوبا وأهل بوهرز من الذهب مائة ألف دينار إمامية ، وأرباب الأملاك لا يعترفون بشيء من ذلك ، فوقع الخليفة بتقليد ذلك قاضى القضاة « فان ثبت عنده شيء يحكم به وإن لم يثبت عنده شيء فلا حاجة لنا بأموال الرعية » ، فقال قاضى القضاة « ما ثبت عندى إلا حجج الملاك فحسب » ، فقال ابن عمارة وصدقة بن صدقة : « يؤخر هذا إلى أن يحضر من يشهد به لبيت المال وما قد أخذ (٢) »

(١٩١) سعادة لو أحاط الحارمى بها
لعاد فيما ادعاه وهو حزن نان
فاسعد بها دولة غراء ما اذّرت
بمثلا حمير قدما وساسان
واسلم ، تدوم لنا النعمى فإنك ما
سلمت فى جذل ، فالدهر جذلان
لازلت بدر سماء يستضى به
ويهدى مظلم منا وحيران

(١) لعلها « يتكلم » .

(٢) الظاهر أن بعد هذه الكلمة ورقة - على الأقل - ضائعة لعدم وجود رابط بين مجرى الكلام وما يلى .

ولا سعى لك صرف الدهر في حرم
ولا رأى وجه من يرجوك حرمان

* * *

وفيها كتب جلال الدين صدقة بن صدقة نائب الوزارة مطالعة
إلى الخليفة يكثر القول فيها في حق أستاذ الدار بن العاصب وأن الديوان
يحكم فيه برأيه ، والأموال تجب إليه وما يقدر أحد يستوفي لبيت المال منه
شيئاً ، فوقف الخليفة على المطالعة وكتب عليها إلى ابن صدقة بصدقه
فيما ذكره ، فتيقن ابن صدقة وظن في نفسه أن الخليفة قد تغير على أستاذ
الدار وأنه يقبل القول فيه ، وكان ابن صدقة ضعيف الرأي قليل التصور
اعتقد أن الخليفة هو الذي اختاره لهذه الولاية وأن أستاذ الدار لم يكن له
في ترتيبه شيء ، فصار إذا تقدم أستاذ الدار بأمر يتعرض هو لإبطاله
ويقول : « لا أفعل هذا الأمر إلا بتقدم الخليفة » ، وأستاذ الدار لا يعلم
كيف هذا الأمر ، فلما حضر عند الخليفة قال إنه قد جنح أمرنا في الديوان
وصار هذا النائب إذا تقدم إليه بأمر يقول : « لا أفعله » ، فقال له الخليفة
« كأنك ما علمت أنه كتب إلى مطالعة يذكر فيها كذا وكذا في حقك وهذا
ما يجيء منه خير ، إن شئت أن تصرفه فأصرفه ورتب غيره من شئت ، فذاك
ملك » . وكان هذا جميعه من غير طينة نفس الخليفة لأنه قد تغير على أستاذ
الدار ولا (٩١ ب) يظهر له ذلك من شدة خوفه منه ، فخرج أستاذ الدار
من عند الخليفة ونفذ الحاجب مملان إلى الديوان بأمر ، فقال نائب الوزارة
ابن صدقة : « ما هذا ديوان الأبنية ، هذا ديوان الخليفة ، ما يقدر أحد
يتقدم فيه بأمر إلا بأمر الخليفة » ، فرجع الحاجب مملان وحكى ما جرى من
ابن صدقة لأستاذ الدار فعظم ذلك عليه وشاع ذلك في بغداد وقال الناس :
« هذا دليل على تغير الخليفة على أستاذ الدار » ، وكثر القول في ذلك ،
وكررت معاداة ابن صدقة لأستاذ الدار ومباينته له ، فكتب أستاذ الدار

إلى الخليفة أسماء جماعة لكي يختار منهم شخصاً لنيابة الديوان ، منهم عارض الجيش ابن الدرانج وشرف الدين بن الخلال وحاجب الباب ابن هبيرة ونجم الدين بن الثقي ، وذكر أن هؤلاء الجماعة كلاً منهم يصلح أن يكون نائب وزارة ، ومدح ابن هبيرة حاجب الباب وذكر أنه كان يتوب في الديوان عن أبيه وبالغ في القول ، فبرز خط الخليفة يقول : « إن ابن الدرانج - عارض الجيش - أصلح من هؤلاء ، وبعد هذا فالحديث معك ، والرأى إليك في ترتيب من شئت ، فليس لنا في هذا حديث » ، فنفذ^(١) إلى ابن الدرانج وتحدث معه وعرفه الحال وقال : « إذا ركب نائب الوزارة إلى الديوان عرفوني حتى أنفذ إليه أعزله ليكون ذلك أكثر في الشناعة عليه وكسر الحرمة » ، فحملت دواة ابن صدقة إلى الديوان ، وجاء من أخبر بركوبه فتقدم أستاذ الدار إلى الحاجب أبي الرضا أن يأخذ معه جماعة من الحجاب وجماعة من أصحابه من ديوان الأبنية ويمضى إليه ويقول لنائب الوزارة ابن صدقة : « قد استغنى عنك فالزم بيتك » ، فمضى الحاجب إلى الديوان فلم يجده ، فرجع إلى داره فدخل عليه وقال له : « إلزم بيتك فقد (١٩٢) استغنى عنك » .

ثم تقدم إلى الحاجب أن يحضر معه جميع النواب بالديوان العزيز ويحضرون إلى الديوان ، ففعل ذلك . ثم رجع الحاجب أبو الرضا إليه وقال له : « قد تقدم إليك أن تحضر جميع^(٢) ما يكون عندك من خطوطه ولا يبقى عندك منها شيء » ، ففعل ذلك وحلف بالنعمة الشريفة أنه لم يبق عنده شيء ، وكثر القول من الناس أن أستاذ الدار قد تحسّم في دار الخلافة بحيث لو أراد أن يعزل الخليفة لفعل . وكثر خوف الناس من أستاذ الدار فكان الأمراء وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته خوفاً منه .

(١) أي أستاذ الدار .

(٢) في الأصل « مكتوب » ..

وكان جماعة من الناس يقولون إن الخليفة يريد قتل أستاذ الدار وأن هذا جميعه استدراج له .

ثم إن أستاذ الدار أحضر بهاء الدين عارض الجيش إلى داره وأدخله إليه خلوة ، ثم أذن للناس بالدخول إليه فلم يبق من أرباب الدولة أحد ، وأذن لجميع الناس ذلك اليوم بالدخول عليه فدخلوا . فلما استقر بهم المجلس التفت أستاذ الدار إلى عارض الجيش وقال له : « أدع للخليفة وأعلم أنه عين عليك في نيابة الديوان العزيز وأخرج من ذمته مظالم العباد وفوضها إليك ، فيجب أن تنظر لنفسك وتبصر أين تضع قدمك ، فلا تتمكن من ظلم أحد ، ولتكن سيرتك حسنة ليحسن الذكر ويكثر الدعاء لهذه الأيام الزاهرة ، فسكى عارض الجيش بسكاه شديدا إلى أن تعجب الناس من ذلك ، ثم التفت أستاذ الدار إلى حاجب الحجاب والكتاب وحاشية الديوان وقال لهم : « قد رسم أن مرجع أمركم إلى هذا ، وهو المستخدم لكم ولا يخالفه أحد في أمر من الأمور ، فقالوا : « السمع والطاعة » ، ثم قال له : « انعم باسم الله » ، فقام ليخرج من عنده فقام له أستاذ الدار على قدميه .

ثم تقدم أستاذ الدار أن يدخل مركوبه إلى وسط الدار ويركب من موضع جرت عادة النواب ، خلف ابن الدارنج أنه لا يركب إلا^(١) خارج (٩٢ ب) الدار فلم يمكن من ذلك ، وركب على طرف الإيوان الذي يلي الباب وخرج والناس بين يديه والمهالك والأمرأ والحجاب والكتاب وغيرهم من الناس ، وجلس في حجرة الصلاة ، وكتب مطالعة^٢ تشتمل على حضوره في الديوان وشكره الأنعم الشريفة ، ونفذ المطالعة إلى باب الحجرة ، وخرج الجواب إليه بأن يطيب نفسه ويشرح صدره ، واستقل بالنيابة .

• • •

(١) في الاصل « الى » .

ذكر ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين في هذه السنة بمصر والشام من الفتوحات والغزوات

ودخلت هذه السنة والسلطان خيم بحماه معول على قصد الموصل ، فلما دخلت أيام من المحرم سار بعساكره متوجها إلى حلب ، فلما قرب من تل السلطان خرج للقاءه أخوه الملك العادل سيف الدين ومعه عسكر حلب وكان صاحبها ، فاستبشر السلطان بلقاءه ثم سار من تل السلطان فنزل بظاهر حلب فأقام أياما حتى اتصلت به العساكر ، وسار منها متوجها إلى الفرات فنزل بمكان يعرف برسا تحت البيرة على فرسخين منها ، فلم يزل هناك ثلاثة أيام حتى تكامل عبور جميع العسكر ، ثم رحل متوجها إلى حران ، فلما وصلها ضرب خيمة في ظاهرها وكان بها مظفر الدين كوكبوري وكان قد وصل رسوله ابن ماهان إلى السلطان قبل عبوره الفرات يحثه على العبور والوصول إلى حران ، وقال إن مظفر الدين قد كتب خطه بخمسين ألف دينار يوم الوصول إلى حران تكون برسم النفقات ، وكتب خطه للسلطان بذلك .

فلما وصل السلطان إلى حران بقي بها أياما ومظفر الدين لا تجرى منه حركة بما بذله رسوله ، والسلطان من كرمه لا يندبه إلى ذلك .

فلما كان بعد أيام أنفذ إليه قاضي العسكر شمس الدين بن الفراهي والعماد الكاتب الأصفهاني وقال لهما : « امضيا إلى مظفر الدين (١٩٣) واكشفا عن أمره وأخبراه بما أخبر عنه رسوله من المال الذي بذله ، ففضيا إليه ، فلما بصر بهما كأنه علم بما جاء به فقام قبل أن يقعدا ، وجاء بالمصحف الكريم وحلف به أنه لم يبذل شيئا مما ذكر عنه ، وأن رسوله كذب عليه فيما ذكره ، فرجعا إلى السلطان وأخبراه بالقصة فسكت عن بيانها مطرقا .

فلما أصبح ركب إلى الميدان ساعة واستصحب معه مظفر الدين

إلى سرادقه على العادة ، ثم أمر به فنقل إلى خيمة ووكل به فيها ومنعه من أصحابه ، فهاج العسكر واجتمع الأمراء عند السلطان وتكلموا وقالوا له : « إن هذا لا تأمنه ولا تحلى سبيله ، والرأى أن تنقله إلى قلعة حلب فتسجنه بها ، فلما انصرف الأمراء من عنده تقدم إليه الفقيه عيسى وقاضى العسكر وذكراه الصفح والإحسان ، فقال للفقيه عيسى : « امض إليه وطيب نفسه وسكن روعه ، فمضى إليه وعرفه ذلك فقال : « السلطان مالك رقتى ، وأنا أخرج له مما معى من البلاد وأكون بين يديه برسم الخدمة كأحد المماليك ، فقال له : « بل تسلم إليه قلعتى الرها وحران ، فقال : « السمع والطاعة ، فرجع إلى السلطان وعرفه الحال فأمر له بتشريف جميل يليق به واستدعى به ، فقبل الأرض بين يديه وتسلمت منه القاعتان ثم أعيدتا إليه فى آخر السنة . وأقام السلطان بخران [شهر] صفر وتوجه منها إلى رأس^(١) عين فى مستهل شهر ربيع الأول فنزل بها يوما واحداً ، ثم رحل منها إلى دارا فنزل بها فتلقاه صاحبها ، ووصل فى تلك الحال عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمد عوضا عن أخيه نور الدين وكان قد تأخر لمرض عرض له ، فشكره السلطان وأجزل له العطاء . ثم رحل السلطان إلى نصيبين وسار منها إلى بين النهرين فضرب مخيمه هناك ، ووصل إليه معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى حاجب (٩٣٠هـ) الجزيرة ، فاستبشر السلطان بقدومه ووفّر له من إحسانه ، وسار بعساكره إلى طريق الدولعية^(٢) قاصدا

(١) رأس عين أو رأس العين : وهى فى الأصل رأس عين الخابور : وهو مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران وديسر . وتكثر بين العينون حتى يقال انها تبلغ ٣٦٠ مينا ، وقد اورد ابن حوقل وابن جبير - على حد الفاصل الزمنى بينهما - وصفا لها ، وكانت هذه العين تعرف عند الرومان باسم Resaina ، انظر مراصد الاطلاع ٥٩٣/٢ - ٥٩٤ ، ولى ستراخ : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٥ والمراجع الواردة هناك فى حاشية رقم ٣٠ .

(٢) فى الأصل « الدولية » والتصحيح من مراصد الاطلاع ٥٤٢/٢ حيث عرفها بأنها قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم فى طريق نصيبين ، وانظر ابن واصل : مفرج الكروب ١٦٦/٢ .

إلى دجلة ، فنزل على بلد من شاطئ دجلة في آخر شهر ربيع الأول ، ووصله الخبر بوفاة نور الدين بن قرا أرسلان صاحب آمد يوم الاثنين رابع عشر من الشهر المذكور ، فأمر أخاه بالرجوع إلى تلك البلاد وأمره بترتيب أمورها ، ثم رحل منها ف ضرب مخيمه على الإسماعيليات وأقطع البلاد الأجناد ، وسير الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري ومعه جماعة من الأمراء^(١) إلى العقر وأعماله^(٢) .

وأمر السلطان بعمل جسر فنصب ، وعبر مظفر الدين بن علي صاحب حرّان وخيم بالجانب الغربي ومعه جماعة من الأمراء ، وجاء أخوه زين الدين من إربيل^(٣) بعسكره وجماعته وأمر الناس بترك القتال وتأخير الزحف ، وأرسل القاضي ضياء الدين الشهرزوري برسائته إلى الديوان العزيز في إنهاء الأحوال وشرح الأسباب المقتضية لنهوضه لخدمة المواقف المقدسة الناصرة لدين الله ، وأن المواصلة كاتبوا البهلوان بضرب الدرهم والدينار باسم السلطان السلجوقي ليظهروا بنصره ، وأنهم بعد ذلك راسلوا الفرنج يغر ونهم بقصد الثغور وكشف ما اعتادوه من الظلم ، ويذكر أيضاً ما افعلوه من مبايعة ابن أخيه منجر شاه بن غازي وابن زين الدين صاحب أربل وما ضيعوا من محافظته ، وأنهم لم يراعوا حقه ولا حق أبيه الذي حفظ بيتهم ، وأشياء كثيرة لم تذكرها .

(١) في الأصل « الاكراد » وفوقها « الامراء » ، أما العقر فقريبة بين تكريت والموصل تنزلها القوافل ، أنظر مراصد الاطلاع ٩٥٠/٣ .

(٢) سار ابن المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة حيث تجمعت لديه حشود كثيفة من الاكراد الهكارية ، أنظر الكامل لابن الأثير ، ٢٠٨/١١ ، هذا وقد أرسل الصلاح جماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لافتتاح قلاعها ، راجع ابن واصل : مفرج الكروب ، ١٦٧/٢ .

(٣) مدينة كبيرة لها قلعة حصينة ذات خندق عميق في طرف المدينة يقسع سور المدينة في نصفها ، والقلعة على تل عال من تراب وهي أكبر من قلعة حلب وأوسع منها ، راجع في ذلك مراصد الاطلاع ٥١/١ .

فصل

من كتاب عن السلطان الى مجد الدين بن صاحب أستاذ الدار الامامية
في وجه ما شرحه من الحال :

« قد أحاط العلم الكريم بأن التوجه لم يكن في هذه السنة من دمشق
إلى حلب إلا للجهاد في سبيل الله عز وجل فإنه غاية الأرب وذلك بنية
غزاة (١٩٤) أنطاكية . فإن غزاة الفرنج من جانب دمشق إنما تستقيم
أسبابها ، وتستتب آراؤها إذا كانت عساكر مصر حاضرة ، والأيدى
بقوتها متظاهرة ، وكانت العساكر المصرية قد طالت بالشام إقامتها ،
وتوفرت في ملازمة الخدمة في البيدارات عرامتها ، فرأى إراحتها واستجمامها ،
وعادت إلى مصر لتستجد استعدادها واهتمامها ، ووصل إلى حلب لقرمها
من البلاد الإسلامية لتجتمع العساكر منها لغزاة أنطاكية ، وطمع أيضاً
في وصول العسكر الموصل إلى الإنجاد . والمساعدة من سائر الجهات على الجهاد ،
والاستظهار منها بتوافر الأمداد ، فإن رسل المواصل ما زالوا مترددين ،
وللخدبة بالقول والكتب مجددين ، وهم في أثناء ذلك يرسلون الجوانب ،
ويكاتبون الأجانب . ويرتقبون النوائب ، وتذهب بمعاودتهم الأوقات ،
وتحدث دون قصد هم الحادثات ، فهادن أنطاكية هدنة آذنت بغبطة
الإسلام ، وخلّص من طال إسهاره من ذوى الإقدام ورجال الشام ،
ورأى أن المواصل لا ينزلون عن المحتمين به ، ولا يرفعون أيديهم
عن المعتصمين بسببه ، ومنهم صاحب الجزيرة وصاحب إربل ومن
بتكريت والحديثة وغيرها ، وأنهم لا يقفون في المكر والخدبة عند أمد ،
وأن رسلهم متناوبة إلى كل أحد ، فسار على أنه يلحق البلاد قبل هجوم
الحر ، ويصل إليها في وقت إمكان الحصر ، فما وصل إليها إلا والحر
قد اشتد استعاره ، والقبض قد تأججت ناره ، ورأى الوقت يعسر في تقديم
آلات الحصار ، ويخشى عليها مع نار الهجير من قبول النار ، فإنه

استصحب منجنقات ودبابات ، وأخشاباً^(١) لعمل البرج مهيئات ، ووقد الظهرة يؤثر فيها ، ويشق أيضاً لبس الدروع على مستلميها ، فلم يبق إلا المقام بنية المطاولة والمصابرة ، والتّهل إلى أن يطيب الزمان ويتيسر إمكان المحاصرة ، فتوطّن عزمه على التوطّن ، وأقام بنية التثبّت وقوة التمكن ، (٩٤ ب) وأقطع البلاد والولايات ، وولى الإقطاعات ، وخيّم العساكر المنصورة بشرقي الموصل وغربها فضيقت خناقها ، وملأت بنجوم الأسنة آفاقها ، وتصرّفت في أعمالها ، وتفرّقت في سهولها وجبالها .

ومنه :

« ورأينا أن مقامنا بغير شغل ، فأفكرنا في أمر يقوم مقام الحصار سهل ، وهو أننا وجدنا الماء في أوان نقصائه ، وأنه إذا سُدَّ وحول فهذا زمان إمكانه ، فركبنا وشاهدنا موضع التحويل ، وأيقنا من الله تعالى بنجح التأميل ، « وذكر^(٢) المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها ، بحيث يبعد مستقى الماء منها ، فحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نزال ؛ واستدعى لذلك الآلات واشتغل بجمع صناع ورجال .

وأصدر أيضاً كتاباً إلى الديوان العزيز بمقتضى ذلك .

رجعنا إلى إتمام الحديث .

(١) في الأصل « أخشابات » .

(٢) يستفاد مما ذكره أبو شامة : الروشتين ٦٣/٢ انه العبارة المحصورة بين قوسين من كلام العماد في رسالة له الى الديوان العزيز . راجع الروشتين ٦٣/٢ .

ولم يزل السلطان محاصراً الموصل مواظباً على مضايقتها إلى أن أتاه الخبر -
ب وفاة شاه أرمن صاحب خلاط - يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر ،
وكانت وفاته يوم الخميس الرابع^(١) منه ، فحينئذ ترددت الآراء وكثرت
المشورات وأتى إليه الأمراء وذوو الرأي منهم من أشار عليه بالمسير إلى
تلك الديار ، ومنهم من قال له : « تجمع بين الأمرين فترك بعض العسكر
بقدر ما تضايق به البلد من الجانبين ، وتعجل بالمسير لأخذ تلك الحطة ، ،
فلما أصبح وردت عليه^(٢) كتب أولياء الدولة بخلاط وتلك الولايات
وبدء ليس^(٣) .

ووصل من أمراء خلاط عماد الدين ملك ، وحرص السلطان على المسير
إلى تلك الديار وقال : « هذه الموصل ملك ما يخشى فواتها ، فبقى السلطان
مفكراً في أمرها في يومه وليلته . فلما أصبح عزم على الرحيل عن الموصل ،
ثم أمر الرسول بالمسير إلى بلد خلاط ، وأمر أمراءه بالتأهب وعرفهم
ما عزم عليه من قصد تلك الحطة ، ثم أرسل إلى (١٩٥) زين الدين بن علي
كوجك صاحب إربل بالرجوع إليها ، وجعل في معونته الأمير سيف الدين
علي بن أحمد المشطوب .

ذكر رحيل السلطان من الموصل إلى ديار بكر ومسير ناصر الدين محمد
ابن شيركوه ومظفر الدين بن علي كوجك في المقدمة إلى خلاط ، وذكر
وصول بهلوان بن أيدكر إلى المغرب .

فيها كان رحيل السلطان عن الموصل بعساكره في أواخر شهر ربيع

(١) في الكامل لابن الأثير ، ٢٠٩/١١ ، وبنه أخذ مفرج الكروب ، ١٦٨/٢ ، « التاسع »
والصواب ما هو وارد بالمتن أعلاه .

(٢) وذلك خوفاً من أن يملكها العجم .

(٣) الضبط من مرآة الاطلاع ١٧١/١ حيث عرفها بأنها بلدة من نواحي أرمينية قرب
خلاط ، لكن انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٨ ، وحاشية رقم ٢٢ والمراجع
المذكورة هناك .

الآخر من السنة وتقدم إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شير كوه بأن يتقدم إلى خلّاط ، وأردفه بمظفر الدين [بن زين الدين] صاحب حران ومن تابعهما ، فلما وصلوا إلى خلّاط وجدوا سيف الدين بكتمر — أحد عماليك شاه أرم — ^(١) قد دخلها وحمل معقلها ، فوقف ناصر الدين ومن معه دونها ، وجاء شمس الدين بهلوان أبو جعفر محمد بن أيدكز ^(٢) في عساكر الشرق ونزل بقرب خلّاط أيضا ، وكان وزير خلّاط مجد الدين أبو الموفق بن رشيق يكتب السلطان [صلاح الدين] مرة ويكتب البهلوان أخرى ، ويكتب إلى ناصر الدين [بن شير كوه] بالإقامة .

وأما السلطان فإنه سار متوجها إلى ديار بكر يخاف جميع متملكيها من قدومه إليهم .

فأما النظام البقش — متولى ماردین — فإنه احتجز وتحصن ؛ وأما صاحب آمد فإنه خاف على نفسه من السلطان أن يأخذها بعد موت أبيه نور الدين [محمد بن قرا أرسلان] ، وأشار على السلطان جماعة من الأمراء بأخذ آمد وقالوا له : « إنما أنت وهبتها لنور الدين ولا حرج عليك في أخذها من ولده مع كونه طفلا ، وأنه قد امتنع أن يأتي إلى الخدمة ، فقال : « هذا أمر لا يفوت استدراكه ، ونحن نتقدم بإيفاد من نثق به إليهم ونأمل ما هم عليه ونبني الأمر على اليقين » . فندب إليهم القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن الفراش ، فحين دخل إلى آمد وجدهم على جادة العزم على الوصول إلى الخدمة فتركهم ، وأتى إلى السلطان فخبّره بوصول (٩٥هـ) قطب الدين سليمان — ولد نور الدين محمد بن قرا أرسلان — ، وكان

(١) كان شاه أرم في ذلك الوقت هو ناصر الدين سلمان بن إبراهيم ، راجع

زامباور : معجم الانتساب ، ص ٢٤٨ .

(٢) « أيدكز » في مفرج الكروب ، ١٦٨/٢ .

وصول السلطان إلى ميفارقين في العشر الأول من جمادى الأول ، فرأى أهلها مفارقين لطاعته ، وأتاه كتاب ناصر الدين محمد بن شيركوه يستأذنه بالوصول إليه ، فأذن له بذلك وقال : « الرأي أن نبتدىء بحصار ميفارقين ونفجها » ، وشاور أصحابه وأمرأه في ذلك فقالوا له : « الرأي ماتراه » .

* * *

ذكر حصار ميفارقين

ولما علم النظام البقش بمسير السلطان إلى تلك الجهة نذب من أصحابه الأمير أسد الدين برتقش وأمره بالمسير إلى ميفارقين ، فلما وصلها بذل يده في الأموال وفرّق على الرجال ، ونصب المنجنيقات والعرادات ، وملا الأبراج بالاجناد ، وأرعد وأبرق وأنف واستكبر ، فلما عاين السلطان ذلك أمر عساكره بالاستعداد ونصب المناجيق فنصبت ، وأمر الناس بالقتال والزحف ، وطال القتال عليها صباحاً ومساءً ، وخرج جماعة منهم وأحرقوا منجنيق السلطان ، فقتل من الفرقتين جماعة كبيرة وقتل يوسف المنجنيقى ، وكان مقدماً شجاعاً ، وكان في كل يوم تشد الحرب ويكثر النزال ، وكانت الأمور لا تزداد إلا شدة ، وطال الحصار ودام .

وكانت خاتون بنت قرا أرسلان — زوجة قطب الدين صاحب ماردين — حينئذ بميفارقين^(١) ، وكانت تحرض الناس على القتال ، وكانت ذات يتامى ولها حالة حسنة معروفة بالصلاح والتقى ، فلما لج الحصار وطال الأمر وتمادى راسل السلطان الأمير المذكور بميفارقين يستلينه ويستكشف

(١) عرفها مراراً الاطلاع ١٣٤١/٣ ، وياقوت : معجم البلدان ٧٠٣/٤ وما بعدها بأنها أشهر مدينة بديار بكر ، وبطن أنها من بناء الروم ، انظر وصفها الجغراف والتاريخي في سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، حاشية رقم ٢٠ ، ٢٢ .

نهج الجواب من جانبه ، ويرغبه تارة ويستعطفه تارة ، ثم يتوعد تارة ويتهده أخرى ، فذكر أنه يقضى حق من وجب عليه حقه ، يعنى بذلك صاحبه ، وذكره أن قطب الدين مذ درج إلى رحمة الله تعالى لم تزل الخاتون مالكة الأمر ونحن لها مطيعون .

فراسل السلطان حينئذ خاتون مرة أخرى وهى لا (١٩٦) ترجع إليه جواباً يشفيه ، ثم إنه قال لها : « إنا لا نبرح هاهنا حتى نفتح ميا فارقين . وإنا — نحن — أولى بحفظ بيتك ورعاية حقك ، وهذه البلدة إذا دخلناها فلا خروج لنا عن رضاك ونصاهر ك فى إحدى عقائلك ، ، ولم يزل بها حتى طابت نفسها بما بذله السلطان لها .

وراسل [السلطان] عند ذلك الأمير الأسود [برتقش] وقال له : « دع اللجاج والمجانبه فإن خاتون قد مالت إلى جانبنا ، فلما بلغه أن خاتون قد وافقت السلطان على مراده لانت عريكته [و] ضرع إلى رأى السلطان واستقر أن ينقطع إلى خدمته وأن يكون فى جملة من شملته سوايغ نعمته ، وأن يخصه بجنالجور^(١) وأعماله ، وأن يقرر مع خاتون أن يبقى ما كان عليها باسمها من المواضع واسم خدامها ، وسألت أن يفرد لها حصن الهتاخ^(٢) ، وخطب السلطان إليها إحدى بناتها لابنه الملك المعز فتح الدين اسحق^(٣) والتمست منه ماقرره على يمينه ، فسارع إلى مرادها .

* * *

(١) ذكر ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ٣١١/١ أنه اسم لكورة كبير متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية فيها قلاع وقرى للأرمن .
(٢) الضبط من معجم البلدان ، ومرصد الاطلاع ١٤٥١/٣ .
(٣) وكان عمره اذا ذاك لا يتجاوز الحادية عشرة ، راجع شفاء القلوب ، ورقة ٧٣ ١ والروستين ٢٧٦/١ .

ذكر ميافارقين وفتحها

ولما كان يوم الأربعاء آخر يوم من جمادى الأولى تقدم السلطان إلى القاضي نجم الدين بن عصرون والعماد الكاتب الأصفهاني بالدخول إلى ميافارقين لعقد النكاح على ابنة قطب الدين لولده اسحق ، وكان وكيل السلطان لابنه : العماد الكاتب ، ووكيل ابنة قطب الدين القاضي نجم الدين بن عصرون لتقرير المهر وتسلم النقد ، وجلس السلطان في مرادقه للهناء . وخرج إليه الأعيان من البلد ، ونفذ إلى خاتون هدايا ونخفا برسم المخطوبة ، وأنعم على الأمير أسد الدين بجنلجور ، وشرفه تشريفاً جميلاً .

ووصل عند ذلك قطب الدين سكان بن محمد بن قرا أرسلان ، وأمر السلطانُ الأمراءَ بلباقته ، ثم خرج من بعدهم فتلقاه بالإكرام ، ولم يزل عنده مكرماً ثم شرفه وأمره بالرجوع إلى آمد موفور الحظ من جانبهِ ، وفوض السلطان ولاية تلك الأماكن والبلاد إلى (٩٦ ب) مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى .

• • •

ذكر رحيل السلطان من ميافارقين ونزوله على شاطئ قرامان

ورحل السلطان من ميافارقين ونزل على الموضع المذكور وراسل البهلوان ، وكان السبب في وصوله رسالة سيف الدين بكتمر له وتخويفه من السلطان ، وأنه متى أخذ خلاط واستولى على ممالكها قصد جميع بلاد العجم ، وحمل إليه مع ابنته — زوجة شاه أرمن — مالا جزيلاً ، وندب السلطان الفقيه عيسى إلى مجد الدين بن رشيق الوزير بخلاط فسلمه معه فأحال الحال على البهلوان ، وأنكم لو استعجلكم قبل وصوله إلى البلاد نلتكم المراد .

ثم إن الفقيه عيسى ندب شخصا من أصحابه للتجسس على عسكر البهلوان
وتصفح الأحوال ، فلما توسط عسكره نذروا به فادعى أنه رسول من صاحبه
الفقيه عيسى رسول السلطان ، فطلبوا منه حينئذ وصول الفقيه عيسى إليهم
فكاتبه بذلك ، فأرسل الفقيه عيسى كتابه إلى السلطان يعرفه صورة الحال ،
فكتب السلطان إلى البهلوان بإرسال الفقيه عيسى إليه ، فتوجه الفقيه عيسى
حينئذ إلى البهلوان فأكرمه إكراماً عظيماً ، فشرع الفقيه عيسى بالصلاح
وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة فيما بين الفئتين ، ورجع وفي صحبته
رسول البهلوان إلى السلطان فأكرمهم وأجزل لهم من عطائه ورجعوا
موفوري الحظ من جانبه ، ورأى أن الأمر يتناول فأخبره إلى حين انتهاز
فرصة الإمكان .

* * *

ذكر وصول رسل السلطان إلينا إلى مصر والبشارة لنا بفتح ميفارقين

ولما فتح السلطان ميفارقين واستولى على ممالكها أرسل نجبا بين بكتابه
إلى والدى الملك الظفر - وكان حينئذ صاحب مصر والمستولى على ممالكها -
يخبرنا بما من الله تعالى عليه من فتح (١٩٧) ميفارقين ، فشرعنا حينئذ بتزيين
البلدين : القاهرة ومصر ، وأرسلنا رسلنا إلى جميع البلاد المصرية بذلك ،
وضربت البشائر في جميع الأماكن ، وسررنا بما من الله تعالى عليه من النصر
والظفر ، وخلع على المبشرين له بذلك ووفر عطيتهم وشرّفهم .

* * *

ذكر رحيل السلطان من شاطئ قرامان ونوجهه إلى الموصل

وذلك في شهر رجب من السنة المذكورة فكان وصوله إلى نصيبين
فقل بها أياما حتى تكامل وصول العساكر إليه وذلك في آخر الشهر

المذكور، ثم رحل من نصيبين فنزل على شاطئ دجلة بكفر^(١) زمار بقرب الموصل وذلك بعد أربعة أيام من شعبان^(٢)، لحينئذ ضاقت على صاحب الموصل الأرض بما رحبت وغلقت أبواب الموصل وأحاطت بها العساكر واضطرب أهلها اضطراباً شديداً، وكان السلطان يركب في بعض الأيام ويشرف على البلد وينظر مقاصده، وكان يأتيه منذ نزل - على ما حكى لي - في الرسالة^(٣) من الموصل قوم بعد قوم، فبينما هو على ذلك من حصارهم والتضييق عليهم إذ أقبلت عليه النساء الاتا بكيات تخضعن له في القول وسألته عاطفته، فأنزلهن خير منزل وأكرمهن غاية الإكرام وأجابهن إلى ما رمنه منه وقبل شفاعتهن، وقال لهن: «لا بد من قاعدة نبي عليها وتألف عليها القلوب وتطمئن إليها الأنفس». فاستقر الأمر أن يكون عماد الدين زكي صاحب سنجار - أخو صاحب الموصل - وسيطاً في البين وحكماً فيما يعود بمصلحة الجانبين. وسير السلطان رسوله إلى صاحب سنجار في إيفاد رسوله، فأنفذ وزيره شمس الدين بن السكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور^(٤) وقلاعها وحصونها وضياعها وكذلك ما وراء الزابين^(٥) من البوازيج والريستاق وبلد القراملية^(٦) وبني قفجاق، فدخل (٩٧٧هـ).

(١) كفر زمار قرية من قرى الموصل، أنظر مراسد الاطلاع ١١٧٠/٣.

(٢) وقد أقام بها شهرى شعبان ورمضان، أنظر الكامل، ٢١٠/١١.

(٣) يعني بذلك السفارة بين الجانبين.

(٤) هي إحدى الكور الواقعة بين اربل وحمدان، وجميع أهلها كرد، وكان تعدادهم

في القرن العاشر اليلادي قرابة ستين ألف أسرة، أنظر مراسد الاطلاع ٨٢٢/٢، ولى سترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٢٥ - ٢٢٦، وحاشية رقم ٩.

(٥) المقصود بالزابين هنا الزاب الأعلى وهو ما بين الموصل واربيل، ومخرجه من عين رأس جبل، وهو يمتد حتى يفيض في دجلة على فرسخ من الحديثة، أما الآخر فهو الزاب الأسفل ومخرجه فيما بين شهرزور وأذربيجان ويفيض في دجلة فوق تكريت، أنظر مراسد الاطلاع ٦٥٢/٢، أما البوازيج فبلد قرب تكريت ومصب الزاب الأسفل إلى دجلة، شرحه ٢٢٧/١، وياقوت: معجم البلدان، وأما الريستاق فمدينة بفارس من ناحية كرمان، أنظر مراسد ٦١٥/٢، وياقوت: شرحه.

(٦) «القرابلى» في الكامل، ٢١٠/١١، و«القرابلية» في مفرج الكروب.

١٧١/٢. أنظر فيما بعد ص ٢٢٥ س ١٢.

شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر لأخذ العهد من صاحب الموصل على ما ذكرناه ، واستقرت القواعد على ذلك ، وضربت الدنانير والدرهم باسمه ، وخطب له على المنابر بجميع تلك الممالك .

* * *

نسخة

كتاب كتبه السلطان الى اخيه سيف الاسلام ملك اليمن يذكر فيه فتح ميفارقين وعوده الى الموصل وما جرى من الصلح ، وذلك بانشاء العماد الكاتب الاصفهاني

« كتابنا ونعم الله تعالى منوط بمزيد الشكر عندنا مزيدها ، محوط من السيد وأما وفريدها ، حال من الاغتباط منها جيدها ، حال في محل الارتباط لنا أنيسها وشرودها ، والنصر ماض نصله ، والخير واضحة سبله ، والملوك وقد دانت لنا رقابها ولانت صعابها ، وذلت لعزتنا أعزتها ، وتوفرت للنناهي في العبودية لنا هزتها ، فرسلهم على الأبواب العزيزة للدلة خاضعة ، عارضة للاستكانة ضارعة ، والممالك لمملكتنا خاطبة ، وفي عدلنا رغبة ، ولطلوع سنى إحساننا بكشف ظلم الظلم عنها طالبة ، والوجوه سافرة ، والأيدي ظافرة ، ولاشك في إحاطة علمه بعبورنا الفرات في صفر سنة إحدى وثمانين لإصلاح ديار بكر والموصل ، وفوزنا في كل وجهة بالنصر العذب المهل ، وأنا أقننا أشهراً على بلاد الموصل وتصرفنا فيها ، وأنعمنا على الأجناد بأعمالها ونواحيها ، فاتفق اختلال أمر ديار بكر لموت ملوكها وتبدد سلوكها ، فقصدها وقررنا أمورها ، وأعدنا إلى مطالعها من سياستها نورها ، وفتحنا ميفارقين وهي أم بلادها ومقلد نجاحها ، ومركز محيطها ونقطة بسيطها ، فملكنا بها من ديار بكر رق ملوكها ، وأطلقنا بها شمس المهابة بعد دلوها ، وأخذنا الفتن وقد وقدت ، ونهنا السنن (١٩٨) وقد رقدت ، وأحيننا العدل

وقد دثر ، وأنعمنا الفضل وقد عثر ، ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد
صم شتاتها ، ونظم مصالحها وصرف آفاتنا ، وآذن حيا رحمتا رُفاتها ، ولأجل
اعتصام الأطراف بنا واستمساكهم بسبينا ، ومنهم صاحب الجزيرة
معز الدين سنجر شاه بن أخى صاحب الموصل . وزين الدين بن زين الدين
على كوجك صاحب إربل رأينا أن نقيم في بلاد الموصل لنشتوبها إلى الربيع ،
ونستجد حيزنا في فتح البلاد حسن الصنيع . ولما تحقق صاحب الموصل هذا
العزم ، وخشى هذا السهم ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضافته الهوموم
التي وجفت لها القلوب ووجبت ، فألقى سلاحه ، وطلب بالصلح صلاحه ،
وخفض بضارعه جناحه ، وحفظ على أهله فينا نجاحه . ولم يزل لنا مدعنا ،
وكان حلمنا لما من روعه لما أتى مؤمنناه ومؤمننا ، ونزل لنا عن جميع ما وراء الزاب
من البلاد والقلاع ، والخصون والضياح ، وشهزور ومعاقلها وأعمالها .
وولاية بنى قفجاق وولاية القرايلي^(١) والبوايج وعانة . وقررنا عليه الموصل
وأعمالها على أنه يكون بحكمنا . وينفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتمكن
الخطبة والسكة باسمنا وسمتنا . وأن يطلق المظالم ، ولا يرتكب فيها المآثم ،
وقد حصلت لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة
والسكة والخطبة ، وصارت في كل خطة لدولتنا الخطبة . وتمت فينا الرغبة ،
ونمت لنا المحبة وعمت الهيبة والرغبة ، وما سميت لكل ذى رتبة سامية
إلا بالانخفاض لأمرنا الرتبة ، والدولة ناضرة . والحدائق ناظرة الأحداق ،
منيفة الإشراف منيرة الإشراف ، متعالية السناء سنة العلاء ، وبنعمة
الأولياء متواليه النعماء ، سامية الهمة هامية السناء ، نامية الصحة صحيحة الأسماء ؛
والعوارف إلى ذوى الشكر منا فوارع ، والصنائع في ذرى الابتهاج بنا نصانع ،
والعزائم (٩٨ ب) إلى الجهاد في سبيل الله عز وجل نوازع ، وقد زالت
العوائق وارتفعت الموانع ، ونجحت الآمال ورجحت ، وتمكن ساعد
القدر وساعد إمكان القدر .

رجعنا الى اتمام الحديث

ولما تسلم السلطان البلاد المذكورة ولاها جماعة من أصحابه ومواليه وأمرائه ، فأما شهرزور فإنه أرسل إليها مملوكه مجاهد الدين أياز ، وندب للنظر في تلك الأعمال شمس الدين بن الفراش ، وأقطع البوازيح لبعض خواصه ، . ووقف ضيعة تعرف بيا قبلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد .

ثم رحل السلطان من الموصل في شوال متوجها إلى نصيبين فكان فيها ثامن الشهر المذكور وأقام بها أياما ، ثم رحل منها إلى حران في العشر الآخر من شوال فكان وصوله إليها في آخره ، ولم يزل السلطان بحران إلى آخر السنة وكان قد ألمّ به مرض شديد مدة مقامه في حران وطال ذلك به ، وكثرت الأراجيف عنه في تلك المروضة .

* * *

ذكر شيء من مكارم أخلاقه رضى الله عنه

ذكر بعض أصحابنا أن السلطان لما اشتد به المرض بحران وكان قد أتاه جماعة كبيرة من سائر بلاد الإسلام طلباً لإنعامه عليهم على جاري عاداته وحسن سجيته قال : فاستغاث الناس ومن هناك من القاصدين له والسائلين ، فسمع ضجة الناس فقال : « ما هذه الضجة ، ؟ فقيل له « هؤلاء الوافدون عليك قد اجتمعوا على بابك متأسفون على ما بك ، قال : « فأمرني بكتب أسماهم فكانوا خلقاً كثيراً ، فأعطى كلامهم على قدره وما قسم الله تعالى على يده ، فكان مالا كثيراً ، وسارت الأخبار بمرضه .

فأما أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر فإنه سمع بحلب مرض أخيه فسار إلى حران يقطع المنازل فوصلها بعد أيام ، فأقام بها عند السلطان

اضبط الأمور وسياسة الجمهور والجلوس في تَوْبَتَيْهِ^(١) لتولى مصالح الرعية ووظائف السباط والعمل في كل مهم وتنفيذ ما يخرج من المراسيم السلطانية (١٩٩) وسماع مراسلة الجوانب وغير ذلك .

واتصلت بنا الأخبار إلى مصر والكتب من عنده بمرضه ، وكان والدى الملك المظفر حينئذ بها ومتوليا^(٢) على ممالكها ، ثم تواترت إلينا كتبه بعافيته وركوبه ، فسررنا بما من الله به تعالى على الإسلام وأهله بعافيته .

* * *

ذكر من توفى في هذه السنة من الأماثل وغيرهم ممن نذكره :

فيها توفيت عصمة الدين ابنة معين الدين أنر وكانت في عصمة نور الدين محمود بن زنكي ، فلما توفى وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد ونصرة الإسلام تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين [وخمسمائة] وكانت من النساء العفاف ، ذات معروف^(٣) وصدقة وصلاح .

وفيها توفى^(٤) سعد الدين مسعود بن أنر رضى الله عنه .

وفيها توفى عز الدين جاولى وكان من أكابر الأمراء .

وفيها قتل قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة وزير قرا أرسلان ، قتل بآمد ، قتله ممالك مخدومه وذلك أنه كان قد تمكن واستولى على ما كان

(١) يقصد بذلك النوبة السلطانية . راجع مفرج الكروب ١٧٢/٢ .

(٢) في الأصل « متولى » .

(٣) هو الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر وزوجة نور الدين محمود ، فلما مات عنها تزوجها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ . وكانت دينة عفيفة برة ، كثيرة الاوقاف على الخير ، أنشأت مدرسة للحنفية بدمشق ورباطا للصوفية ، ولما ماتت دفنت بترتها التى أنشأتها بقاسيون دمشق ، انظر النعمى . الدارس في تاريخ المدارس ، ٢٤٤/٢ - ٢٤٥ النجوم ، ٧٨/٦ ، ٩٩ .

(٤) هو أخو خاتون عصمة الدين وقدمات بعدها في نفس السنة ، انظر Ency. Isl. Arte: Khatun.

بصدده، وكان أحد الأمراء الكبار - ويُعرف بالصلاح - فبلغ أنه قد تولى الأمر معه وكلاهما مستشعر من صاحبه ، فسبق الوزير إلى قبضه وحبسه واستقل في التدبير ، فلما سمع الملك الناصر صلاح الدين بهذه الواقعة من الوزير وما حدث منه في حق الأمير المذكور قال يوماً في مجلسه : « لقد تعرض هذا للخطر وكأني به وقد ذهبت نفسه ، فكأنه نطق بما كان في القدر المحتوم ، فلم تكن إلا أيام قلائل [إلا] والخبر ورد بقتله .

ذكر السبب في قتله

وذلك أن جماعة من المماليك المفردين تأمروا على قتله فجاء أحدهم إليه وهو جالس في ديوانه وعنده جماعة من الأماثل والأكابر وغيرهم فقال له : « الملك يدعوك وحدك ليسألك عن حديث عندك ، ، فقام ودخل الدهليز فثاروا عليه وقتلوه ، ثم أخرجوا الصلاح من الحبس ، فلما تمكن قبض وبسط ، وشرّد أصحاب الوزير وقتل منهم من أدركه ، ثم إنه قتل أولئك القاتلين (٩٩ ب) ^(١) إلى أن أدرك الأمير رشده .

وفيها توفي الأمير ناصر الدين ^(٢) بن شيركوه بحمص في تاسع ذي الحجة من السنة المذكورة .

وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلی بحمص ، وسأذكر ما تجدد من الأمور السلطانية في سنة اثنتين وثمانين إن شاء الله تعالى .

وفيها تجهّز أبو يعقوب بعسكر زهاء على عشرين ألفاً ، وجمع جموعاً

(١) ورد بعد هذا أربع كلمات مطبوسة .

(٢) راجع عن موته ابن الأثير : الكامل ٢١٠/١١ - ٢١١ ، وابن واصل : مفرج

الكروب ١٧٤/٢ ، والمقرئى : السلوك ٩٠/١

كثيرة لقصد على بن اسحق ورجع مكسوراً^(١) .

* * *

واقعة قراقوش المظفرى

وفى هذه السنة وصل إلى نواحي قشطلية أبو الحسن على صاحب مايرة^(٢) ، لأنه كان خرج إلى بجاية وملكها وكسر السيد أبا على بن عبد المؤمن وأخذ منه أموالاً عظيمة وسار إلى مرعية فملكها وعاد من فوره راجعاً إلى ناحية المشرق ، وجعل بجاية وراء ظهره وترك بها أخاه أبا زكري ونزل هو على قسطنطينية الهواء محاصراً لها فأقام عليها أربعة أشهر ، فوصل إلى بجاية عسكري الموحدون تقدمهم السيد أبو زيد عمر بن عبد المؤمن ، لم يقدر أبو زكري على الإقامة ببجاية فلحق أخاه إلى قسطنطينية . وسار إليهما أبو زيد فحبسه فانهزموا بين يديه إلى قلعة^(٣) ابن حماد فأخذوها ونهبوها فلحقهم فانهزموا إلى بلر أخذوها أيضاً ونهبوها ، فسارع إليهم أبو زيد فدخلوا نفطة^(٤) وكدكين من عمل قشطلية ، وسمعوا بشرف الدين أنه على الحامة فنفذوا إليهم رسولاً وقالوا : « تناقوم من بنى العباس وزيد دولتهم ، ونحن زيد أن نكون وإياك مجتمعين » ، فنفذ إليهم شرف الدين بهاء الدين ساروج ومعه ستون فارساً من أجناده وشطار عسكريه ، فلقبهم على حامة البهاليل

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل هذا الخبر بتوسع تحت عنوان « ذكر ملك المسلمين والعرب أفريقية وعودها إلى الموحدون » .

(٢) مايرقه جزيرة في شرق الأندلس ، مراسد الاطلاع ١٣٤٦/٣ . أما بجاية فقد عرفها نفس المرجع ١٦٣/١ بأنها مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب . أما قسطنطينية الهواء فقلعة كبيرة عالية من حدود أفريقية مما يلي المغرب . شرحه ١٠٩٢/٣ - ١٠٩٣ .

(٣) سماها ياقوت : معجم البلدان . قلعة حماد . وهى في الأصل « ابن » وقد سحج ما بالتين بعد مراجعة مراسد الاطلاع ١١١٧/٣ - ١١١٨ حيث عرفه بأنها مدينة بها قلعة عظيمة تسمى أفربوش وهى قرب أشير من أرض المغرب الأدنى .

(٤) غير منقطة في الأصل وقد ضبط الاسم على رسمه في مراسد الاطلاع ١٣٨٢/٣ حيث قال « مدينة بأفريقية من أعمال الزاب الكبير » .

يحاصرونها ، وقد كانوا نزلوا على توزر^(١) فما قدروا عليها ولا على نفطة
وكدكين ، فلما وصلت الأتراك إليهم رجعوا إلى الحامة المذكورة فأخذوها
عنوة وقتلوا فيها ألفا وسبعمئة رجل ونهبوها (١٠٠) وكانت من البلاد
الحسنة الطيبة الكثيرة البساتين والفواكه [وانعقد^(٢) الصلح] فتقررت
القاعدة على أن تكون البلاد بينهما نصفين ، يكون لشرف الدين من البلاد :
نوبة ، ومن نوبة إلى الغرب المايرقي ، ومهما فتحوه كان قسمة بينهما ،
واتفقوا على ذلك وتحالفوا وتجمعوا ، ولم يزالوا بقية سنتهم يرحلون وينزلون
من موضع إلى موضع ويتمادون ، وأصحاب المايرقي يقولون وأصحاب شرف
الدين يكتثرون ، لأن الميارقة ما كان لهم مدد من خليفهم ، وأصحاب
شرف الدين لهم الإقطاعات تصل إليهم من جبل نفوسة ومطماطة وبلاد
نفزاوة وغيرها .

ودخلت سنة اثنيتين وثمانين [وخمسمائة] . وسأذكر واقعه فيها فيما بعد
إن شاء الله تعالى .

سنة اثنيتين وثمانين وخمسمائة

فيها نقل إلى الخليفة أن حاجب الباب يعشق امرأة مغنية يقال لها
خطبشة الظفرية وكانت مستحسنة ، وأنه يمضي إليها إلى الجانب الغربي من
بغداد ، فلم يصدق ذلك .

وكان أستاذ الدار ابن الصاحب شني على المذكور ، والخليفة يتمنى له

(١) مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد ، انظر ابن
مجد الحق : مراصد الاطلاع ٢٨٠/١ .
(٢) ما بين الحامرتين غير مقروء في الاصل .